مقال

المراهنات العربية على الانتخابات الاسرائيلية والجوكر الصهيوني!

بقلم: انعام رعد

المراهنات العربية على نتائج الانتخابات الاسرائيلية تجاوزت الاهتمام بنتائج أية انتخابات أخرى بما فيها الانتخابات العربية نفسها، ونفهم ان يكون الأمر كذلك لو ان تلك الصورة المموهة المزيفة حول الانقسام بين «معسكر السلام»، و«معسكر الحرب» حقيقية في كيان قام تاريخه في المنطقة على الحروب والعدوان والتوسع والاستيطان. لكن الأمر مختلف عن هذا التوهم او الاسقاط الرومانسي على واقع الأمور والميل لتصوير حزب العمل برئاسة شيمون بيريز على انه معسكر السلام هو ميل خال من المضمون مخالف للحقائق.

ونود بداية ان نستعير من تعابير البيان الختامي لثلاثة رؤساء عرب تربطهم باسرائيل «معاهدات سلام» الصادر عن قمة الرئيس مبارك - الملك حسين - ياسر عرفات في ١٣ ايار (مايو) ١٩٩٦ حيث ورد بالنص «ان السلام المأمول هو السلام الحقيقي القائم على احترام الحقوق والواجبات المتبادلة.. والانسحاب من جميع الاراضي العربية المحتلة ونبذ مفاهيم التوسع والتفوق والسيطرة والالتزام بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني واحترام وتأكيد الحقوق الفلسطينية والعربية والاسلامية والمسيحية القانونية والتاريخية والروحية في مدينة القدس، فبغير هذا يكون الحديث عن السلام قولاً خالياً من أي مضمون يقطع الطريق على أي شريك عربي مستعد حقاً لتحمل مسؤولية السلام والاسهام في بنائه».

فهل ينطبق حرف واحد من نص هذا البيان الختامي على برنامج بيريز المصر هو ونتانياهو على ان «القدس عاصمة موحدة أبدية لاسرائيل»؟ وهل ينطبق حرف واحد من نص هذا البيان الثلاثي على برنامج بيريز وحزبه في اقتطاع اراض تبلغ مساحتها بين ٢٠ - ٣٠ في المئة من مساحة الضفة الغربية لضمّها الى الكيان الاسرائيلي بما فيها المستوطنات اليهودية؟

وهل ينطبق هذا النص على انكار الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني في برنامج العمل والليكود حيث ينكر حقه الطبيعي في العودة لثلثي الشعب الفلسطيني المشرد وينكر حقه في تقرير المصير؟

وهل ينطبق هذا النص على مفاهيم التوسع والتفوق والسيطرة التي ان نسي الاسرائيلي ذكرها ذكّره بها حليفه الاميركي في ان السلام يكون بالحفاظ على التفوق النوعي الحربي لاسرائيل على مجموع القوة العربية! وفي ان اسرائيل بالنسبة للشركات المتعددة الجنسيات التي طاف سفراء حليفتها عليها هي «بوابة الشرق الاوسط»، أم هي الاوراق الاسرائيلية المقدمة من بيريز وحكومته الى قمتي الدار البيضاء وعمّان والتي تنص على مشروع شرق اوسطي قطبه الأوحد اسرائيل تبسط سيطرتها على الخامات والمياه والمرافق لانتاج صناعات الرأسمال العالمي المتمركز فيها؟!

هاتوا أيها السادة نصاً واحداً، حرفاً واحداً ينسجم مع هذه الآمال في برنامج بيريز الذي لا نخمّن تخميناً انه ينقضها ولا نحيلكم الى برنامجه السياسي المستقبلي بل الى الاتفاقات التي عقدت منذ عام ١٩٩٣ في ظل حكم حزب العمل ولم تنص على بند واحد من هذه البنود، وعلى الممارسات الاستيطانية التي ابتلعت القدس او كادت، واقساماً من الضفة الغربية وانكرت حق العودة وتقرير المصير ثم مارست مشروع هيمنة واستفراد على الدول العربية من الترسانة النووية الى ترسانات الاسلحة المتطورة الدائمة التدفق الى هذه الترسانة.

فكيف يسمى معسكر بيريز من بعض العرب بمعسكر السلام، بل كيف يقال في نص هذا البيان الختامي: «فبغير هذا يكون الحديث عن السلام قولاً خالياً من أي مضمون» طالما ان السلام الذي تجلى في الاتفاقات المعقودة منذ ١٩٩٣ حتى ١٩٩٦ كان عكس هذا وبالتالي فهو «خال من أي مضمون» و«يقطع الطريق على أي شريك عربي مستعد حقاً لتحمل مسؤولية السلام والاسهام في بنائه». هذا حسب نص الرسميات العربية المتعاقدة مع اسرائيل ومع حزب العمل بالذات.

ولذ كان هاماً كلام الرئيس الياس الهراوي في قانا لدى استقبال وفود الاتحاد البرلماني العربي حين قال: «أيها الاحباء الكرامة أولاً والسلام ثانياً لأن لا سلام بلا كرامة».

فهل يشعر العرب بالكرامة حين قال لهم بيريز في قمة عمّان «ان العقول الاسرائيلية تنتج اكثر مما يدر عليكم به نفطكم»؟

وهل لبّى العرب نداء الرئيس اللبناني حين قال: «ودم الابرياء من اطفالنا والنساء والشيوخ والشباب يستصرخ الضمير العربي»؟

فهل سمع العرب المهرولون الى التطبيع او المراهنون على بيريز «رجل السلام» «نداء دم الابرياء من اطفالنا والنساء والشيوخ والشباب» في قانا والنبطية والمنصورية وسحمر؟!

والذي يأمر «بعناقيد الغضب» وحمم النار على لبنان هل كان نتانياهو أم بيريز الذي لبس الخوذة وثياب الجنرال وأراد ان ينافس خصمه في العدوان لا في السلام؟!

ألم يكن واجباً ان يقترعوا ضده عقاباً على العدوان على لبنان، وعلى تجويع الشعب الفلسطيني حتى يعتبر غيره لأن مساندة بيريز بعد العدوان على لبنان وتجويع الشعب الفلسطيني يؤكد له ولمنافسه نتانياهو ان بامكانهم اعادة الكرة وتصعيد العدوان دون حساب ولا عقاب باعتبار ان العرب «متسامحون» بحقوقهم ودماء اطفالهم!

ليتنا سمعنا حنان عشراوي وهي تجيب عن اسئلة احدى محطات التلفزة اللبنانية فتقول لا فرق بينهم كلهم سواسية، ولو كان هناك عالم عربي لما كان رد فعله في هذا المستوى بعد مجزرة قانا.

ان أفضل وصف وأصدق تعريف وأدق تحديد هو ما قاله الرئيس حافظ الاسد في كلمة افتتاحه لمؤتمر اتحاد البرلمانيين العرب في دمشق حين تساءل عن التسمية التي تطلق على الذي «يحتل أرضنا ويقصف شعبنا ويرتكب المجازر... ويقرر ان القدس عاصمته الى الأبد ويقيم المستوطنات ويحجز لها معظم الاراضي التي احتلها من فلسطين وسورية ولبنان ويسعى الى السيطرة على منابع المياه في اكثر من قطر عربي ويمني نفسه بهيمنة اقتصادية وعسكرية وسياسية على منطقتنا». وخلص الرئيس الاسد «اذا لم نسمه عدواً فما نسميه»؟

المهم أن نعرف ان عدونا مجمع على هذا، لكن الأهم ان نعرف على ماذا نحن في هذا العالم العربي يمكن ان نتفق ولو على الحد الادنى، مع ان عدونا مجمع على الحد الاعلى من برنامجه هذا! هلا انطلقنا من عبارة الرئيس الهراوي: «الكرامة أولاً» هل يكون سلام بدون كرامة؟!

هل حصار الشعب الفلسطيني شهوراً وتصاعد البطالة والفقر عنده الى نسب عالية واستمرار التوسع والاستيطان حكم لصالح الاتفاقات التي عقدت باسمه ووصفت «باتفاقات السلام» واحتفي بها في واشنطن ووزعت على موقعيها جوائز نوبل للسلام؟! هل العدوان على لبنان بهذه الشراسة الدموية هي من مقومات السلام؟

هل الاعلان من بيريز عن اصراره على الاحتفاظ بمياه الجولان وبالقدس وباجزاء واسعة في الضفة الغربية وبهندسة نظام شرق اوسطي قوامه حلف اسرائيلي - تركي كالكماشة يطبق على عنق العرب واضطراد ملء الترسانة الحربية الاسرائيلية بأسلحة الدمار الشامل والترسانة الحربية هي بوادر السلام أم ارهاب المنطقة واذلالها؟

وبماذا تختلف هذه الخطط عن برنامج الليكود العدواني المفضوح؟!

فاذا كان عدونا مجمعاً في ليكود نتانياهو وعمل بيريز على هذا كله فما هو الحد العربي للدفاع عن الكرامة والوجود؟

ان المدخل لمثل هذه الخطة العربية هي ان يعيد العرب النظر في ثلاث مسائل اساسية:

أولها: ان رابطة العروبة مفروض ان تكون هي لا الشرق اوسطية ولا العلاقة مع اسرائيل الاساس لقياس أية علاقة أخرى والحكم عليها. فاذا كانت القدس تهوّد فلا سلام، واذا كان لبنان يواجه العدوان والاحتلال لجزء من أرضه فلا تطبيع، واذا كان الجولان أرضاً او مياهاً في قبضة العدو فلا سلام ولا تطبيع، واذا كان العدو يتحالف مع تركيا او سواها للضغط على بلد عربي فلا مفاوضات ولا اتصال.

وقفة من هذا النوع تقلب الموازين والمعايير.

ثانيها: ان الولايات المتحدة مصالحها مع العرب اذا اتفقوا ومصالحها مع اسرائيل طالما هم مبعثرون. ان الولايات المتحدة تستورد نصف نفطها، وان خزان النفط العالمي هو في الخليج بالاضافة الى الجزائر وليبيا وسورية ومصر.

ان النفط بالنسبة للولايات المتحدة «مصلحة حيوية قومية» كما يقول كبار مسؤوليها. ولأن النفط فصل عن المصلحة الحيوية لشعوبنا حصلت عليه الولايات المتحدة في ظل التبعثر العربي دون مراعاة المصلحة الحيوية للعرب بدل مصلحة لاسرائيل.

ثالثها: ان السوق العربية المشتركة اذا قامت مكتملة عوامل السوق الاقليمية الغنية بمواردها، بسوق استهلاكها الواسع، بطاقاتها البشرية. فلماذا نحن بحاجة الى ان نركّب على سوقنا العربية رأساً صهيونياً ونسميها الشرق اوسطية.

على العرب ان يتوقفوا امام هذه المسلمات ليصونوا سياسة الحد الادنى التي لو اقاموا تضامنهم على اساسها لأصبح اهتمام العالم بهم وحدهم في هذه المنطقة، بدل ان يهتموا هم بمن سيختاره الكيان الصهيوني ليتحكّم بمقدراتهم: نتانياهو الذي يشهر سكينه دون خجل أم بيريز الذي يغلّف «عناقيد الغضب» بابتسامة «شرق اوسطية» ماكرة!

وفي الأخير كلاهما جوكر صهيوني!